قُدرت اعدادهم بنحو 11 الف نسمة

اكراد الناصرية: هجّرهم صدام .. فصاهرتهم المدينة

حسين كريم العامل

> ”في تحقيق سابق نشر في (المدى) تحدثنا عن واحدة من مفارقات مدينة الناصرية التي اسست على نهر الفرات سنة 1869م ، وتستقي ماءها من دجلة البعيد عنها، عبر نهر شقه امير سومري عام 2800ق.م. واليوم نضع ايدينا مجدداً على مفارقة اخرى تنطوي على دلالة اكبر .. فهذه المدينة تضم في قائمة مواطنيها نحو احد عشر الف كردي ! بعضهم اتخذها مستقراً له منذ قرون او عقود، كجزء من الحراك الاجتماعي داخل الوطن الواحد، واكثرهم هجّرهم النظام الدكتاتوري اللعين قسراً من مدنهم وقصباتهم وقراهم في كردستان العراق، وزرعهم في اراضي الناصرية.“

فاضل عباس محمد

ثائر فاضل عباس

محمد قانون نور الدين

ام ريبين

ولكنها - على عكس ما كان يتمنى الدكتاتور - استقبلتهم بطيبتها، وخمدت جراحهم، فامتدت جذورهم فيها، واندمجوا في مجتمعها المحلي، وعملوا. وفي ذروة هذا التداخل تصاهروا مع عوائلها، وصار لهم ابناء، وتوزع حبهم بين كردستان والناصرية.

الناصرية مدينتي

"ان الناصرية مدينتي" هذا ما قاله الخياط الكردي فاضل عباس محمد الذي نزح الى هذه المدينة عام 1975 هرباً من الارهاب وقمع السلطات المستبدة وواصل حديثه قائلاً:

الفترة الطويلة التي قضيتها في هذه المدينة هي عمر طويل وان علاقتي مع اهالي الناصرية طيبة ولي فيها الكثير من الاصدقاء اشاركهم مناسباتهم الاجتماعية. ويتواصلون معي في الافراح والاحزان ولم امكث في الناصرية هذه المدة الطويلة الا لهذا السبب، فقد تزوجت من امرأة عربية ولي منها عشرة ابناء واقترنت بناتي الثلاث ايضاً بأبناء هذه المدينة من العرب. ان ابناء هذه المدينة طيبون رغم قساوة النظام الذي لم يمنحني حتى قطعة ارض فيها وحرمني من السكن في بيت خاص، ومازلت حتى هذه اللحظة اسكن بالايجار. وعن تواصله مع الاكراد المتواجدين في الناصرية قال:

- ان علاقاتي مع الاخوة الاكراد المتواجدين في الناصرية كانت محدودة بسبب التوجس والحذر الذي سمم به النظام السابق علاقتنا الاجتماعية، فقد كنت اتحاشى اللقاء مع اي منهم بسبب الخوف من تقارير البعثيين وتجسس رجال الامن، وكذلك حرصاً مني على عدم انكشاف ارتباطي السابق بالحزب الديمقراطي الكردستاني الذي كنت عضواً فيه قبل 1975 . ولكن مع هذا كنت اتواصل وازور اقاربي في بغداد ولم اتمكن من زيارة كردستان الا مرة واحدة لغرض نقل سجل الاحوال المدنية. وعن رغبته بالعودة الى كردستان قال:

- ان لي في كردستان وتحديداً في اربيل والسليمانية اهل واقارب واحبة، وكذلك ذكريات جميلة، لكني لن اعود الى كردستان الا بعد الفدرالية التي هي حلم بالنسبة لي ولأبنائي ايضاً، وحسبما اعتقد هي حق بسيط ومشروع بعد زمن الاضطهاد الذي عانى منه الاكراد. فيكفي هذا الشعب ما ذاقه من انفال وتهجير قسري وتغييب 180 الف كردي في المقابر الجماعية. وحين طرحنا عليه سؤالنا الشائك:

هل توافق ام الاولاد على الاقامة في كردستان؟ قال:

-اعتقد ان ام اولادي ستوافق على ذلك لأن كردستان موطن ابنائها وبناتها.

احبها كردية

وحين سألنا ولده ثائر عن رغبته بالعودة الى كردستان قال:

- لقد زرت كردستان عدة مرات لأمور تتعلق بالعمل ووجدتها جميلة، وبودي لو اسكن فيها. ان الغريزة هي التي تدفعني لذلك، وهذا لا يعني اني لا احب الناصرية فهذه المدينة لي فيها الكثير من الاصدقاء وقد ولدت فيها، كما ان اخوالي واقارب امي في هذه المدينة، وان علاقتي بأخوالي أوثق من علاقتي بأعمامي. لكنها كردستان موطن الاجداد.

* وهل تعلمت الكردية؟

- لا مع الاسف وبودي لو تعلمتها. ولكني اسعى لتعلمها عن طريق الفضائية الكردية وبعض القواميس.

وسألته: ولو خيرت ما بين امرأة عربية واخرى كردية ماذا تختار؟

تحرج في البدء، ضحك بعدها، وقال:

- (ماكو فرق)!! وبعد صمت قليل قال .. احبها كردية.

وعن علاقته مع ابناء الاكراد قال:

ان علاقتي مع ابناء الاكراد توثقت بعد افتتاح مقر الحزب الديمقراطي الكردستاني في الناصرية، حيث اخذنا نلتقي في فترات قريبة في هذا المكان، وتوطدت الصداقة بيننا اما في العهد السابق فلم اكن اعرف اياً منهم.

11 الف كردي في مدينة الناصرية

وفي مقر الحزب الديمقراطي الكردستاني اخبرنا السيد هاني خليفة فيصل مسؤول المكتب عن اماكن الاكراد واعدادهم قائلاً:

- ان اعداد الاكراد في الناصرية حسب علمي يتجاوز 11 الف نسمة وان ناحية الغراف وحدها تضم 46 عائلة، وكل عائلة تضم نحو 11 فرداً وهم من الاكراد الذين سكنوا الناصرية منذ 150 سنة. وقد تزايدت اعداد الاكراد في الناصرية بعد اتفاقية 1975 نتيجة سياسة التهجير القسرية، وقد توزعوا بين مركز المدينة والاقضية والنواحي واماكن تواجدهم الآن هي القلعة والرفاعي والنصر والشطرة والغراف فضلاً عن مركز المدينة.

كنت في الجنة

اما محمد قانون نور الدين الكردي المولود في حلبجة، الذي ما زالت دائرته تماطل في عودته الى العمل بعد ان تركها عام 1993 لأسباب اقتصادية وضغوطات سياسية، فقد قال:

-بعد اتفاقية 1975 لجأنا الى ايران وعدنا الى العراق بعد صدور قرار العفو عن الاكراد المشتركين في قوات البيشمركة. وحين وصلت الحدود العراقية نقلوني انا وعائلتي وعدد كبير من الاكراد بالشاحنات الى مدينة الناصرية، واسكنونا بيوتاً من القصب (صريف) واخذوا منا التعهدات بعدم العودة الى كردستان او التبشير بالآراء السياسية الخاصة بالقضية الكردية.

وعن ذكرياته عن كردستان قال:

لقد كنت في الجنة وبعد اتفاقية 1975 جاء الكابوس. وان اجمل ذكرياتي هي في قرية (شيرمر)، تعني حليب الغنم، الواقعة في خور مال. احلم بالعودة الى هناك لكن غلاء الايجارات في كردستان هو العائق الوحيد. ونأمل ان تنظر الحكومة الكردستانية الى معاناتنا وتساعدنا على ايجاد السكن اللائم، فقد عانينا ما عانينا من سياسة التهجير والتبعيث والغربة. وتأوه محمد قانون وقال:

- لقد تعبت من الغربة يا اخي! فالناصرية هي المنفى الذي اختاره لي النظام. علاقتي بالناس لا تتعدى حدود عائلتي .. وان بيتي ما هو الا خربة اعطتها ادارة المستشفى الجمهوري لزوجتي لتسكن فيها، لأنها موظفة لديهم.

وتقول زوجته ام ريبين:

- ان علاقتنا جيدة مع اهالي الناصرية وليست لدينا خصومات او خلافات، وانا اشعر بالغربة احياناً لعدم وجود اقاربي وتمنى العودة الى كردستان التي فارقتها منذ عام 1992 إذ كنت اسكن قرية كاريزا وشك في السليمانية وفيها اختي عائشة واخي علي وصديقاتي وذكرياتي الجميلة، اضافة الى الحرية والانفتاح الاجتماعي فلا قيود على الحريات الشخصية ولا رقيب على نوعية الملابس، وان مثل هذه الامور مقيدة نوعاً ما في الناصرية.

وعن علاقاتها مع العوائل الكردية في الناصرية قالت:

- ان بيتي يقع ضمن مؤسسة صحية وهو محاط بالاسلاك الشائكة والحراس، وهو يشبه (سجن ابو غريب) وفي حالة كهذه تتعذر الزيارات وتكون علاقتنا محدودة جداً ليس بالاكراد وحدهم وانما حتى بأصدقائنا العرب.

وكيف تعلمتي العربية يا ام ريبين؟

قالت: كانت البداية صعبة وقد استعملت الاشارات في البداية، ولكن الامر اصبح سهلاً بفعل الحاجة وكذلك بتعاون الكثير من الاصدقاء.

(شوية .. شوية !)

اما ابنتها ريناس الطالبة في السادس ادبي فقد قالت:

- انتقلت من السليمانية الى الناصرية وعمري 6 سنوات لم اكن اعرف العربية فتعلمتها (شوية - شوية) بمساعدة الاصدقاء وعن علاقاتها الاجتماعية قالت:

- ان صديقاتي العربيات رائعات ولقد تعودت على هذه الحياة وعلى اجواء المدينة، لكن هذا كله لا يقتل احلامي بالعودة الى كردستان لأن اقاربي هناك وخالاتي. وقد سافرت الى كردستان عدة مرات في العطلة الصيفية ولمست التطور هناك ووجدت الحرية الاجتماعية والاستقرار. وسألتها سؤالاً تقليدياً: لو تقدم لخطبتك شخصان يا ريناس احدهما عربي والآخر كردي ايهما تفضلين؟

لم تغط وجهها بيديها كما تفعل بناتنا واجابت بكل ثقة.

- الله اعلم بالنسبة للزواج. وانا اترك هذا الامر للقسمة النصيب. وعن رأيها بالاحزاب قالت:

- انا لا احب السياسة ولم انتم لا لحزب كردي ولا لحزب عربي. لا احب الالتزام وارغب في ان اكون مستقلة.

وقالت آراز الطالبة في الصف الاول:

- انتقلت الى الناصرية مع عائلتي وعمري ستة اشهر وتعلمت العربية منذ البداية من صديقاتي وانا اتكلم اللغتين معاً.

لذلك لم اعانِ في المدرسة من اللغة بل انني من المتفوقات، وقد حصلت في العام الماضي على معدل 85 ٪. وعن علاقتها مع صديقاتها العربيات في المدرسة قالت انها جيدة، في بعض الاحيان تشعر بأنها غريبة بسبب مضايقة بعض الطالبات المشاكسات ثم استدركت بأن هذه الحالة مألوفة في كل مدرسة حتى لو كانت في كردستان مع فارق ان علاقاتها هناك ستكون اوسع مما هي عليه الآن.

خوال الولد

ويروي علي محمد عمر الذي يعمل طباخاً في احد مطاعم (الكبة) قصة وجوده في الناصرية قائلاً:

- لقد جئت للناصرية بحثاً عن العمل قبل اكثر من 15 عاماً، وكنت سابقاً اسكن مدينة دهوك (برواري) وان زوجتي الاول واولادي ما زالوا في (محلة الكوجر) وبالمناسبة انا متزوج من امرأتين، احداهما كردية والاخرى عربية تعيش معي الآن في الناصرية، ونحن الاكراد اخوال الكثيرين من العرب مثلما العرب اخوال ابنائي وعلاقات الزواج والمصاهرة هذه دليل كبير على عمق العلاقات العربية الكردية، وقد لمس الاكراد ذلك من وقفة ابناء المدينة معهم اثناء عمليات التهجير، كما لمس العرب المعارضين لصدام عمق الاخوة اثناء اقامتهم في كردستان، نحن اخوة في وطن واحد، وان القمع الذي كانت تمارسه السلطات الامنية في العهد السابق نال من الجميع عرباً واكراداً واقليات اخرى ولم يستثن احداً.

الناصرية مغناطيس للاكراد

وحين سألناه عن عدد الاكراد المقيمين في مركز المحافظة قال:

- اكثر من 50 عائلة ولا اعرف عدد الاكراد في الاقضية والنواحي لأن علاقاتنا محدودة فيما بينهم وغير متواصلة بسبب المشاغل، ولأنهم من تجد من تربطه صلة القرابة مع عائلة اخرى وعن رغبته بالعودة الى كردستان قال:

- ان الناصرية مغناطيس للاكراد، وان من تزوج وانجب الاولاد لا يرحل ما دام مرتاحاً في هذا المكان.

* وهل هذا لكونك متزوج من عربية؟

- لا ان الزواج من عربية هو عامل اضافي للبقاء وليس عاملاً رئيساً فإن علاقاتنا وارتباطاتنا مع ابناء هذه المدينة يجعل من الصعب مفارقتها والرحيل عنها.

لو لم يكن في الناصرية مقر لحزب كردي هل كنت تنتمي لحزب عربي؟

- نحن مع الحزب الذي يخدم الوطن سواء كان عربياً او كردياً ونحن دائماً مع ما يفيد الناس.

وعن المهن التي يزاولها الاكراد في المدينة قال:

- ان اغلب الاكراد حرفيون فمنهم الخياطون والنجارون والعمال والطباخون في المطاعم مثلي. وان القليل منهم موظفون.

اما عبد الخضر رسول (ابو سميرة) الطباخ في المستشفى الجمهوري والمولود في كورك عام 1951 فيحدثنا عن رغبته في العودة الى كردستان قائلاً:

- تم تهجيري انا وعائلتي من خليفان في اربيل الى الناصرية عام 1975 وتم توزيعنا بين القرى واسكاننا في بيوت من القصب واني تمنى ان اعود الى كردستان لضمان مستقبل اطفالي فمستقبلهم في كردستان وليس في الناصرية. فعلى الرغم من طيبة الناس في هذه المدينة لكن طبيعتها قاسية واجواؤها ترابية.

وما الذي يمنعك من العودة الى كردستان يا ابا سميرة؟

- انه ضعف الحال وضيق ذات اليد، فأنا مستخدم في دائرة الصحة واسكن في غرفة في احدى المدارس، فضلاً عن ان الايجارات مرتفعة في كردستان وكذلك اجور النقل.

وهل هناك اختلاف في تصرفات ابنائك الذين ولدوا في كردستان على الذين ولدوا في الناصرية؟

- لا لم يكن ذلك الاختلاف الكبير مع فارق ان ابنائي الذين ولدوا في الجنوب يتقنون اللغة العربية افضل من الذين ولدوا في المناطق الكردية، والجميع يتكلم الكردية بطلاقة

* لو تقدم شخص عربي لخطبة ابنتك هل تزوجها اياه يا ابا سميرة؟

- لا .. لا ازوج ابنتي هنا لأنها ستكون بعيدة عني. لأن املي كبير في العودة الى كردستان، وانا اطالب القيادات الكردية بتأمين السكن لنا في كردستان حتى نعود نحن المهجرين

آراز محمد

ريناس محمد قانون

عبد الخضر رسول

علي محمد عمر

في (المدى)

عودة الطائر المهاجر

احمد السعداوي

هذا العنوان الرومانتيكي لا يثيرني اطلاقاً ولكنه يلائم توجهات المرحلة الحالية .. عد ايها الطائر المهاجر الى بلدك .. ارتم في احضان امك .. فلترجع الكفاءات والخبرات العراقيــة .. كي يستفيد منها البلد الذي يمر بأحرج ظروفه.

لكن الكلام شيء، وواقع الحال شيء آخر .. ففي حدود معرفتي، لم يعد الى البلد بعد سقوط النظام الا نسبة قليلة من الذين هاجروا منه خلال فترات مختلفة .. وهناك من عاد ليهاجر من جديد بعد مرور شهر او اقل من شهر، وهناك من اعلن امتناعه عن العودة الى العراق حالياً .. الى ان يفرجها الله!

احد الاصدقاء (مقيم في دولة اوربية) قال ان لديه في هذا البلد الاوربي ضمان اجتماعي 100٪ وضمان صحي 100٪ هو وعائلته الصغيرة .. بمعنى انه سيحصل على مرتبه كاملاً في حال تسريحه من وظيفته الحالية ريثما يجد وظيفة اخرى .. كذلك لن يضطر لصرف مبالغ اضافية في العلاج من اي مرض يصاب به مهما بلغت تكاليفه الفعلية .. وهو لأجل ذلك ولأسباب اخرى يطول شرحها .. لا يريد ان يفرط بهذه المكاسب التي لديه وعائلته .. ويعود الى العراق في هذه المرحلة.

هذه النظرة (الواقعية) .. تتكرر لدى آخرين، يتوجسون من العودة الى محيط متلاطم .. ينقل لهم عبر الفضائيات مشحوناً بالعبوات الناسفة والسيارات المفخخة، ومظاهرات العاطلين عن العمل .. وشحة الدواء .. وسوء الخدمات في جميع المجالات .. فضلاً عمن يقول انه لا يريد العودة للعيش تحت سلطة الاحتلال. وريثما يتحرر الوطن سيحاول هو ان يحرر نفسه من المخاوف الكثيرة والتفكير المض بخيار العودة.

صديق في نيوزلندا .. قال ان ما يمنعه من العودة هو (الكروة!) فلو كانت لديه اجرة الطريق لحزم حقائبه وحقائب زوجته وعاد مرفرفاً بأجنحة الحنين واللهفة.

ولأنه لا يملك هذه (الكروة) يقوم بطقوس تخفف عنه الغربة .. منها انه يذهب الى محطة قطار ولنغتون ويتجول فيها لساعات لا لشيء، الا لأن الشركة البريطانية التي بنت هذه المحطة هي نفسها التي بنت المحطة العالمية في العلاوي في بغداد. لأنه يشعر حين الدخول الى المحطة .. بأنه يتجول في العلاوي مع فارق اساس .. انه لا يرى جنوداً يصعدون وينزلون في محطة قطار ولنغتون. مواطن عراقي كتب رسالة نشرت في احدى الصحف العربية، ابدى فيها احتجاجه على تصريح سمعه لمسؤول في وزارة الهجرة والمهجرين .. وطالب هذه الوزارة بالكف عن مسعاها بإعادة المهاجرين العراقيين من منافيهم ..

ولكن اذا كان لدى المواطن من الاسباب ما يجعله يرفض العودة، فإن لآخرين اسباباً اخرى ترغبهم بالعودة، وهم - كما فهم - من تتوجه اليهم وزارة الهجرة والمهجرين بخطابها.

قبل ايام اكتريت سيارة اجرة ودار حديث بيني وبين السائق .. الذي تبين لي انه عاد من السويد قبل شهر، وحين رأى استغرابي من انه يقود سيارة اجرة قال لي انها سيارة اخيه، وهو يتجول بها في شوارع بغداد لحسب وجرب معي ان يعمل سائق اجرة!! بعد ان اوصلني الى بغيتي .. كانت قد تحصلت لدي حكاية شائكة ومليئة بالتفاصيل .. تصلح لاعداد فلم وثائقي عن العراقيين العائدين .. آخر تفصيل فيها انه سيأخذ ابنه الوحيد الذي يدرس في الثاني متوسط معه الى السويد .. اي انه سيعود الى منفاه .. لأنه لم يستطع تحمل (الوضع).

هناك بالتأكيد من لا ينظر بهذا المنظار الى قضية عودة المهاجرين .. وداخلني احباط من يواجه لوحده مشاكل عسيرة الحل .. لا يريد الآخرون في المهاجر المشاركة في حلها .. بالتأكيد الصورة ناقصة عند هذا الحد .. وهناك زاوية اخرى غير مضاءة بكلامي ولكن، ماذا لو لم نتحول الى دولة اوربية خلال هذه السنة مثلاً؟! وهل من الضروري التعويل كثيراً على من هم في الخارج؟ وهل على البلد ان ينافس المنفى في الجوانب الاقتصادية والامنية (بحدها الادنى) كي يكون مؤهلاً حقاً لعودة المهاجرين .. ومنع الهجرة المعاكسة؟